Trends of poetry of Abi Sheraa Elqaisy

Lect. Dr. Tha'ir Abdul – Zahra Lazzim Shbari
Gollege of Arts / University of Basra

Abstract :

This modest research attempts to deal with two magnificent matters. One of which is to shed light on unknown poet from Basra during Abbasid Era in the third century of Hijra .The poet named Abi Shera'a Elqaisy .This research ,on the first hand, serves our Arabic heritage .On the second hand ,it urges the scholars to study such neglected subjects and uncovers its truth according to an objective vision able to give the unknown poet the rank he deserves among the famous poets .The second important matter denominates the first one and proves it by studying the poetic trends of Abi Sheraa Elqaisy and examining the features of regeneration in these trends .Studying and examining these features enable us to compare this poet with his contemporary other known poets .

اتجاهات الشعر عند أبي شراعة القيسي

م.د.ثائر عبد الزهرة لازم شباري
كلية الآداب/جامعة البصرة

الملخص:

حاول هذا البحث المتواضع أن يتعرض إلى مسألتين هما: تسليط الضوء على شاعر بصري مغمور من شعراء الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري ألا وهو أبو شراعة القيسي وفي هذا خدمة لتراثنا العربي من جهة وحث الدارسين على الاقتراب من مثل هذه الموضوعات المهملة من أجل جلاء ما فيها من حقيقة ، على وفق رؤية موضوعية قادرة على وضع الشاعر المغمور في المكانة اللائقة به ،والثانية :تدليل على الأولى و إثبات لها وذلك من خلال دراسة اتجاهات شعر أبي شراعة وسبر ملامح التجديد فيها . الأمر الذي يمكننا بعدها من إدخال هذا الشاعر في دائرة التنافس مع الشعراء المشهورين في عصره.

توطئة :

لعل من ينظر إلى شعراء العربية يجد أن منهم المشهور والمغمور، إلى جانب هذا يجد أن المشهور أخذ اهتماما واسعاً من الدارسين و الباحثين القدماء والمحدثين، أضف إلى أننا نجد اليوم كثيراً من الدارسين لا يرغب في دراسة الشعراء المغمورين، ذلك بسبب ضياع كثير من أدبهم ونتاجهم في أثناء المظان والمصادر من جهة وبسبب النظرة السائدة حول ضعف قيمة أشعارهم من جهة أخرى.

ومع ذلك لا ينبغي للباحث المحقق أن يعفي نفسه من هذه الدراسة التي لا شك في أنها ستكشف جوانب كثيرة من الحقيقة وذلك بالاعتماد على الموضوعية في الحكم على الأمور ووضعها في الاتجاه الصحيح، ومن هذا المنطلق يهدف هذا البحث إلى إماطة اللثام عن شاعر بصري مغمور، ينتمي إلى القرن الثالث الهجري، لم يحفل بدراسة مستقلة تسلط الضوء على مكامن الإبداع في شعره وتبرزه شاعراً معروفاً ، بعد ما كان مهملاً من الدارسين، وذلك من خلال دراسة اتجاهات شعره الذي امتزج فيه التقليدي بالجديد ،على أن الأخير كان أغلب عليه بحيث يصعب الفصل بينهما، وإن كانت القصيدة عنده في كثير من الأحيان قد نظمت على الطريقة القديمة في الشعر.

هذا ومن نافلة القول إن هذه الدراسة لا تدعي لنفسها وضع اليد على شعر أبي شراعة كاملاً، إذْ لم نعثر له على ديوان محقق، الأمر الذي اضطرنا إلى استقراء مجموعة من المصادر المختلفة ليتسنى لنا جمع أشعاره المتناثرة هنا وهناك، فكانت هذه الدراسة التي نأمل أن تكون خطوة مشجعة للدارسين، على

دراسة مثل هؤلاء الشعراء المنسيين وإزالة غبار الإهمال عنهم خدمة لتراثنا العربي الأصيل ، والله تعالى ولي التوفيق !

-١-

أبو شراعة أحمد بن محمد بن شراعة ينتهي نسبه إلى قيس من أبيه وإلى تميم من أمه، شاعر بصري من شعراء الدولة العباسية [١]

لم تخبرنا المصادر شيئاً عن مولده ونشأته وعلى أي الشيوخ تتلمذ ، وكل ما تسنى لنا معرفته أن أبا شراعة كان صديقاً لوالي البصرة إبراهيم بن المدبر فكان (لا يفارقه في سائر أحواله ولا يمنعه حاجة يسأله إياها....)[٢]

كما أنه كان صديقاً لبعض أدباء البصرة وعلمائها كالجماز ، وأبي أمامة الباهلي، والرياشي[٣] ويروى أنه كان يقصد الحسن بن رجاء والي الأهواز ليمدحه وله في ذلك أخبار عدة [٤] ويبدو أنه كان يتردد كغيره من الشعراء على بغداد وسامراء طلباً للنوال، وقد مدح سبعة من الخلفاء أولهم المهدي ، وعاش إلى أيام المتوكل[٥] وهذا يشير إلى أنه قد عاش طويلاً إذْ يذكر ابن المعتز عن بعض من رآه في زمن المأمون أنه سأله عن عمره فقال: إثنتان وتسعون سنة [٦] ولم تذكر المصادر سنة وفاته ، ولعلها تكون بعد سنة (٢٥٥ هـ) أو بعدها بقليل ، ففي أخبار الجاحظ قصيدة لأبي شراعة في رثائه تدل على ذلك[٧] ويذكر أبو الفرج الأصفهاني نقلاً عن ابنه سوار بن أبي شراعة أنه كان (جواداً لا يليق شيئاً ولا يسأل ما يقدر عليه إلاَ سمح به ... وقد وقف عليه سائل يوماً فرمى إليه بنعله وانصرف حافياً فعثر فدميت أصبعه)[٨] فقال في ذلك :

ألا لا أبالي في العلا ما أصابني وإن نقبت نعـــلاي أو حفيت رجلــي
فلم تـــر عيني قط أحسن منظراً من النكب يدمي في المواسـاة والبذل
ولســـت أبالي من تأوب منزلي إذا بقيت عندي الســراويل أو نعلـي[٩]

وحينما بلغه أن أخاه أتهمه بالجنون لإسرافه في الكرم قال مفتخراً :

أأنبـــز مجـنوناً إذا جدت بالذي ملكت وان دافعـــــت عنه فعاقــل
فداموا على الزور الذي قرفوا به ودمت على الأعطاء ما جاء سائل
أبيت وتأبـــى لي رجال أشــمة على المجـــد تنميهم تمـــيم ووائـل[١٠]

وكان أبو شراعة مولعاً بالشراب إلى الحد الذي جعله يطلق امراته بسببه،فقد حلف ألاّ يشرب النبيذ بطلاق امرأته فمضى حولان ثم طلق امرأته وشرب.[١١]

وكان أبو شراعة قبيح الوجه جداً وقد (نظر يوماً إلى المرآة فقال الحمد لله الذي لا يحمد على شر غيره)[١٢]

-٢-

وكان أبو شراعة (فصيحاً يتعاطى الرسائل والخطب مع شعره)[١٣] وقد ذكر له صاحب الأغاني رسالة في استهداء النبيذ ، يشبه أسلوبها أسلوب الجاحظ في رسائله ويكثر فيها السجع [١٤] ومنها : (وكتابك إليَ أن أتحكم عليك تحكم الصبي على أهله ، فلشد ما جررت إلي معروفك ودللت على الأنس بك ، وحاشى للمحكوم والمحكوم عليه في ذات الحسب العتيق والمنظر الأنيق الذي يسر القلب ويلائم الروح ، ويطرد الهم :

تدب خلال شؤون الفتى دبيب دبـي النملة المنتعش
إذا فتحت فغمت ريحـها وأن سيل خمارها قال خش

فإن كنت رعيت لها عهداً، وحفظت لها عندك يداً فانظر رب الحانوت فامطله دينه، واقطع السبب بينك وبينه، فقد أساء صحبتها، وأفسد بالماء حسها، وسلط عليها عدوها)[١٥] أما عن شعره فقد ذكر لنا ابن المعتز أنه قد دون ، لكنه لم يشر إلى جمعه على شكل ديوان[١٦] ويذكر ابن النديم أن أبا بكر الصولى صنع شعره على حروف المعجم من غير أن يذكر حجم هذا الديوان[١٧] وهو جيد الشعر جزله، ليس برقيق الطبع، ولا سهل اللفظ، وهو كالبدوي الشعر في مذهبه[١٨] والذي بين أيدينا من شعر أبي شراعة يعد صالحاً لدراسة اتجاهات الشعر عنده بما فيه من موضوعات مختلفة من سخرية ،وشكوى ، وخمريات ، ومديح، وهجاء، ورثاء.

- ٣ -

ان الاتجاه التقليدي في الشعر العربي من القوة بمكان بحيث لم يدع للشعراء حرية كافية في ابداعهم الشعري، فقد ظلّ علماء الشعر القدماء يضعون القيود الصارمة بوجه أولئك الشعراء، إلا أن ذلك لم يكن حائلاً أمام سنة الحياة في التطور والتجديد مما حدا بالشعراء في العصر العباسي إلى أن يتمثلوا الحياة الجديدة بما فيها من متغيرات سياسية واجتماعية وثقافية.. إلخ ومن هنا وجدنا أبا شراعة على الرغم من التزامه بالقديم إلاّ أنه سعى إلى التجديد وذلك في الموضوعات والأساليب على حدٍ سواء، ويمكن ملاحظة هذا عنده في الاتجاهات التي كانت صدى للحياة الجديدة في القرن الثالث الهجري من جهة ، وما كانت تطويراً للأغراض التقليدية من مديح، وهجاء، ورثاء،... إلخ من جهة أخرى .

-٤-

ولعل من الاتجاهات الجديدة التي تطالعنا في شعر أبي شراعة هو اتجاه يمكن أن نطلق عليه اتجاه السخرية ، والسخرية كما تحدث الدكتور محمد النويهي أثناء كلامه عنها في شعر ابن الرومي، إذْ قال :(والسخر ليس هو النكته أو المزاح ، ولا هو ما يسميه علماء البديع التهكم والهزل... ولا هو للفكاهة وحدها، بل هو أسمى من ذلك بكثير وأندر وجوداً ، فهو رد الانسان الأعظم على معاكسة القدر وظلم الدهر وقسوة الطبيعة وعيوب المجتمع.. يسخر بهذه جميعاً لا يسبها ولا يعتد عليها ولا يثور بها بل يتأملها بهدوء، ويبصر سخافها.. فيعلو عليها جميعاً يتحدث عنها بابتسامة هادئة)[١٩]

هذا وقد جاءت السخرية عند أبي شراعة على شكل قصائد ومقطوعات قيلت في أغراض مختلفة، وإذا ما تبيناها وجدنا أن الغرض الذي قيلت فيه غير مقصودٍ لذاته في بعض الأحيان، وكل ما فيها فكاهات ونوادر نظمت بشكل شعرْ ومن ذلك ما جاء عنده في معرض الرثاء إذ قال حين زاره أبو أمامة فوجد عنده طفشيلاً فأكله كله :

عين جودي لبرمة الطفشيل واستهلي فالصبر غير جميل
فجعتني بها يد لم تدع للـذ ر في صحن قدرها من مقيل
كان والله لحمها من فصيل راتـــــع يرتعي كريم البقول
فخلطنا بلحمه عدس الشـا م إلـى حمـــص لنا مبلول
فأتتـــنا كأنها روضة بالحز ن تدعـــو الجيران للتطفيل
ثم أكفأت فوقها جفنة الحي وعلقت صحفـتي فـي زبيل

فمــن الله لـــي بفـظ غليظ ما أراه يقـــر بالتـــــنزيل
فانتحى دائـــباً يـدبل منها قلت : أن الثـــريد للتـــدبيل
فتغنى صوتاً ليوضح عندي حـــي أم العلاء قبل الرحيل[٢٠]

فقوله (عين جودي) من التعبيرات التي تكثر في مطالع الرثاء ، ولا غرو أن حكاية الصفات والمميزات لهذا الطعام الذي أكله صديقه تشبه حكاية مزايا الفقيد التي تكثر في شعر الرثاء الجدي ، وقلب الموضوعات الجدية إلى هذا النوع الهازل من الأساليب الواضحة في السخرية .

وقد اعتمد الشاعر في هذه الأبيات أسلوباً شعبياً بلغة سهلة قريباً من ذوق العامة لينفس عنهم بعض هموم ومشاكل الحياة ،لا سيما مشكلة الفقر التي كانت تعاني منها البصرة نذاك، جراء الوضع الاقتصادي السيء الذي نتج عنه شيوع عادات اجتماعية عديدة،منها البخل الذي عرف به كثيرمن البصريين وليس أدل على انتشار هذه العادة من الآثار الأدبية التي وصفها بعض البصريين، مثل كتاب البخلاء للجاحظ الذي يصور البخلاء بشكل دقيق مملوء بالتهكم والسخرية، ومن هنا يمكن أن تمثل قصيدة أبي شراعة بعداً آخر يتعلق بنقد مثل هذا النوع من الأوضاع السلبية في المجتمع، ولعل ما يؤكد ذلك هو أن أبا شراعة قد أعوز ذات يوم النبيذ فطلب من نديمين كانا له فاعتل أحدهما بحلاوة لنبيذه ،والآخر بحموضته ، فاشترى من نباذ يقال له : أبو مظلومة دستيجة بدرهمين ، وكتب إليهما:

سيغني عن حلاوة دبسي يحيى ويغني عن حموضة أبي أمية
أبي مظلـــــومة الشيخ الموالي إذا أتـــزنت يـــداه درهميـــة[٢١]

وهذا استهزاء واضح بالبخل وأصحابه من لدن الشاعر !

وكذلك يوجه أبو شراعة نقده إلى صديقه أبي أمامة في صورة ساخرة يشبه فيها صديقه بالهر إلاّ أنه يجعل الهر في مرتبة أرقى منه لأنها تسعى في طلب رزقها في حين لا يفعل هو ذلك فقد كان عاطلاً عن العمل وكانت أمه تعوله ، إذْ قال فيه :

وأيــن رزقك إلاّ من يــدي مـــرة ما بت من مالها إلاّ على سرق
تبيت والهر ممــدوداً عيـــونكما إلى تطعمها مخضـــرة الحدق
مـــا بين رزقيكما إن قاس ذو فطن فــرق سوى أنه يأتيك في طبق
شاركه في صـــيده للفـــأر تأكله كما تشــاركه في الوجه والخلق(٢٢)

ونرى في هذه الأبيات نقداً واضحاً يتعلق ببعض الشباب الذي يحملون الأم بصورة خاصة عناء المعيشة، إذْ يكون اعتمادهم عليها في توفير متطلبات الحياة كافة، ولعل هذه الظاهرة السيئة ما زالت شاخصة في مجتمعنا المعاصر على الرغم من انتشار الوعي الثقافي والديني.

وفي جانب آخر من شعر أبي شراعة يبدو الأمر فيه مختلفاً تماماً، فبعد ما كان يتخذ من أسلوب الضحك والفكاهة اتجاهاً ينفس به عن نفسه ومجتمعه إلى جانب نقد للعادة السيئة في المجتمع نراه في مقام آخر يبحث عن مقال مناسب من أجل ايصال شكواه بروح ساخرة للتعبير عن قضية من قضايا الحياة المختلفة، فأنه يعمد إلى اتجاه الشكوى من الفقر الذي لا ينفع معه الهزل والفكاهة ولا شك في أن ما كان في القرن الثالث من نضوج فكري وأوضاع شاذة ومضطربة في السياسة

كان له الأثر الكبير في ظهور شعر الشكوى بشكل متميز وملحوظ ، وفي هذا يقول الدكتور طه حسين:(ثم تقدم القرن الثالث فإذا أمور المسلمين تزداد تعقداً ويشتد فيها الحرج وينتشر فيها الاضطراب، ثقافة ممتازة تتغلغل إلى بعض طبقات الشعب وثراء ضخم يزداد انحصاره في أيدي قلة ضئيلة مستأثرة بالحكم، وضعف للسلطان السياسي، وتعمق لمشكلات الفلسفة وشعور واسع عميق بهذا التفاوت ثم انكاره ثم ثورة عليه.. والأدباء يرون هذا كله ويفكرون فيه ويتأثرون به، ومنهم من شارك في بعضه، وإذا هم يصورون هذا فيما يقولون من شعر وما يكتبون من نثر....)[٢٣]، وإذا ما أجزنا لأنفسنا القول أن الشعر طاقة لا تنفذ أمام تصوير مواقف الحياة السلبية والإيجابية لذا نرى من السهولة بمكان على الشاعر المجيد أن يجعل هذه الصور بألوان مختلفة تتناغم بدرجات متفاوتة مع الموقف الذي يثير أحساسه، ومن هنا نرى أبا شراعة يجسد إتجاه الاستهزاء والتهكم حتى في شعر الشكوى.

إن اتجاه الشكوى عند أبي شراعة يعد تعبيراً عن مشكلات الحياة الخاصة التي تفصح عن مشكلات عامة يواجهها المجتمع البصري في تلك المرحلة ، فما قد كان يعاني منه الشاعر نجد غيره من الناس يعاني منه هو الآخر، وعلى هذا يمكن لنا أن ننظر إلى الشكوى بنوعيها الخاصة والعامة ممزوجة معاً في شعره ، ولعل قضية الزواج والأسرة من القضايا التي تشكل عبئاً على كثير من الناس لا سيما الفقراء منهم، الأمر الذي يدفع هؤلاء في بعض الأحيان إلى التفكير في الطلاق والتخلص من الأعباء التي تتطلبها هذه المسألة، وذلك ما نراه في قول الشاعر :

أحرزت كفاي منها حـــــرة غيـر ســرية
ســنها سـن عجوز وهي في العقل صبية
حبــذا التطليق لولا خـــلة فيـــــه رديـــة[٢٤]

وتزداد الحالة سوءاً حينما يتحول هذا المشكل الذي أحدثته تكاليف الحياة إلى طريق مسدود في العلاقة الزوجية ، إذْ يؤدي في نهاية المطاف إلى الطلاق بينهما ، وهذا ما نراه في قول الشاعر بعد أن طلق امرأته في اليوم الذي صادف زواج صديقه بيان فعوتب في ذلك وقيل بات بيان عروساً وبت عزباً فقال :

رأت عرس بيان فهبت تلومني رويـــــدك لوماً فالمطلق أحــوط
رويــدك حتى يرجع البر أهلـه ويرحم رب العرس من حيث يغبط
إذْ قـال للطحان عند حسـابه أعـــــــد نظراً إني أضـــنك تغلط
فما راعـــــه إلاَ دعـاء وليدة هلـــم إلى السواق إن كنت تنشـط
هنالك يدعـــــو أمه فيســبها ويلتـــبس الأجر العقوق فيحبــط
فيا ذا العلا إني لفضلك شاكر أبيت وحيــداً كلما شـــئت .....[٢٥]

ويلاحظ في هذه الأبيات تصوير الشاعر لمشكلة الزواج التي لا يخلو منها المجتمع على مر العصور لما تتطلبه من مسؤولية ثقيلة على الزوج أن ينهض بها، لا سيما في ظل تعقيدات الحياة كل ما تقدم بنا الزمن مما يجعلنا نعيش الضجر إزاء هذه الإشكالية، الأمر الذي يدفع بعض الناس إلى تفضيل حياة الأعزب إلى جانب ذلك تحاملاً على الأم من بعضهم يصل إلى الحد الذي يجوزون لأنفسهم فيه سبها محملين إياها سبب ذلك الزواج وعلى أية حال فنحن

لسنا مع هذه النظرة البائسة تجاه الحياة إذ تدعو إلى التقهقر وعدم التعامل مع أمورها بعين التفاؤل.

ومن مشكلات الأسرة، مشكلة الأبناء الذين يحتاجون إلى توفير سبل العيش الرغيد من ملبس ومأكل، وتعليم ... إلخ ، وعلى هذا تقع على الآباء مسؤولية ذلك كله مما يضطرهم إلى تجشم الصعاب والابتعاد عن الوطن أحياناً من أجل جلب الرزق إلى أبنائهم واستغنائهم عن الآخرين حتى وإن كانوا من الأقارب وفي هذا قال أبو شراعة :

حبي لا غنا ســـــوار يجشــمني خوض الدجى واعتساف المهمة البيد
كي لا تهون على الأعمام حاجته ولا يعــلل عنـــها بالمـــــواعيـــد
ولا يوليهم إن جـــــــاء يســألها أكتاف معرضة في العيس مـــــردود
إذا بكى قال منهم ذو الحفاظ لـه لقد بليت بخلـــق غيــر محـــمود[٢٦]

ويمضي الشاعر في شكواه من الفقر بسبب طبيعة النظرة البائسة إليه إذْ يترك الفقير مهملاً لا قيمة له ولا وزن حتى من لدن أقرب الناس إليه وهم الأقارب لعل ما يؤكد ذلك قوله :

بني سـوار إن رثـــت ثيابي وكل عن العشيرة فضل مالي
فمطرح ومتـــــروك كلامــي وتجفوني الأقارب والمـــوالـي
ألم أك من ســـراة بني نعيم أحل البيت ذو العمد الطـوال
وحولي كـــل أصـيد تغلبي أبي الضيم مشـترك النـــوال
إذا حضر الغداء فغير مغنى ويغني حين تشـتجر العوالي
وأبقوني فلست بمســـــتكين لصـاحب ثروة أخرى اللـيالي

ولا بممسح المثـــرين كيـــما أمسح من طعامهم ســبالي
أنا ابن العنـــــــبرية أزرتنـــي أزار المكـــرمات إزار خالـــي
فإن يكن الغنى مجـــداً فإنـي ســأدعو الله بالـرزق الحلال[٢٧]

إذاً فاتجاه الشكوى عند أبي شراعة قد تضمن موقفاً شعورياً تجسد من خلال تلك المظاهر الأجتماعية التي يمكن أن تكون حالة عامة تتعلق بالإنسان وما يشكو منه أينما كان سواء أكان في الماضي أم الحاضر أم المستقبل ، وعلى هذا يمكننا أن نعدها بوصفها شكوى عامة وإن كانت خاصة في المقام الأول وذلك لما اتسمت به من مسائل فكرية وإنسانية أعمق وأشمل، أما من الناحية الفنية فيتسم هذا النوع من الشعر بسهولة اللغة والبعد عن التكلف والصنعة في الشعر، وكذلك صدق العاطفة التي تنبع من آلام الواقع بفعل قربها من معاناة الشاعر التي هي معاناة المجتمع في الوقت نفسه .

ولعل اقتران تعاطي الخمر عند أبي شراعة بمشاكل الحياة ومعاناتها كان سبباً وراء ظهور إتجاه الخمريات في شعره، وهو اتجاه تناول فيه الشاعر الحياة الاجتماعية بشكل مخالف لما جرت عليه العادة من اتباع القيم والتقاليد السائدة في المجتمع العربي الإسلامي ومع ذلك فهي تمثل عنده تخفيفاً لآلام الحياة المختلفة على شاكلة قوله :

قـــد عـــزل الليل على رغمه وقـد أتتنا دولة الصبح
فانهض إلى الراح فقفل الأسى مالم تدرها عسر الفتح
واربح على دهـــرك في شربها فلـــذة العاقل في الربح[٢٨]

وهنا يصور لنا الشاعر حزنه بسبب عدم طيب العيش في حياة غير مستقرة جراء ما كثر في عصره من ذهاب وال ومجيء آخر وفي هذه الأبيات قيمة فنية تتجلى من خلال توظيف الشاعر للتشخيص بما فيه من دقة عقلية وبث الحياة في الجمادات وما لا يعقل بإضفاء صفات إنسانية عليها .

وكذلك نلاحظ في شعر الخمر معاني عميقة مثلما وجدناها في غيره من الاتجاهات، لا سيما في ذلك الشعر الذي يبين لنا أقصى حالات السكر التي يصل إليها الشاربون، إذْ يتجرد هؤلاء عن الإلتزام بالعادات والأعراف السائدة في المجتمع، بابتعادهم عن الوازع الديني والخلقي فيعبرون عما في أنفسهم تعبيراً يتسم بالطرافة والقوة في آن واحد نحو قول أبي شراعة:

لاخير في العيش فاسمع قول ذي نصح إن أنت لم تغد سكـــــراناً ولم ترح
من قهـــوة كشعاع الشمس صـــافية تنفي الهموم بأنـــواع من الفرح
ما زلت أشربها والليـــل معتـــــكر حتى أكب الكرى رأسي على قدحي(٢٩)

ولعل الناظر إلى هذه الأبيات يلاحظ شدة تأزم حالة الشاعر إلى الحد الذي يرغب فيه بالتخلص من هموم الحياة ولا أدل على ذلك من الصورة الجميلة التي رسمها لنا الشاعر في البيت الثالث من القطعة !!

ويبدو أن الشاعر قد أباح لنفسه تعاطي الخمر مع درايته بحرمتها ، فقد حلف ذات يوم ألا يشرب النبيذ بطلاق زوجته ، فمضى حولان ثم طلقها وشرب فقال في ذلك :

فمن كان لـــــم يســـمع عجيباً فانني عجيب الحديث يا أميم وصـادقه
وقـد كـــــان لي إنســـان يا أم مالك وكـــــل إذا فتشـــتني أنا عاشقه
عزيـــــزة والكـــأس التي من يحلـــها تخـــــادعه عن عقله فتصـــادقه
تحاربتا عنـــدي فعطلت دنـــــهـــا وأكـــــــوابها والدهر جم بوائقـــه
وحرمتها حولـــــــين ثـــــم أزلنـــي حديث النـــدامى والنشيد أوافقه
فلما شـــربت الكـــــأس بانت بأختها فبان الغزال المـــستحب خلائقه
فما أطيب الكأس التي أعتضت منكم ولكنـــــها ليســـت بريم أعانقـــه[٣٠]

فقاريء هذه الأبيات يرى أنها تعكس مظهراً لحياة مضطربة يعيشها الشاعر ولعل ما يثير استغرابنا هو هذه المفارقة التي أحدثها الشاعر حين رتب مسألة طلاق زوجته على مسألة تعاطيه الخمر وهي من غير أدنى شك باطلة بسبب الحلف الذي ألزمه الشاعر نفسه .

– ٥ –

وإذا ما انتقلنا إلى اتجاه تطوير الأغراض التقليدية في شعر أبي شراعة فسيتضح لنا مدى تأثره بالحياة الجديدة التي شهدها القرن الثالث الهجري في ظل نضج الثقافة واكتماله، الأمر الذي نتج عنه ظهور ملامح التجديد في الشعر العربي عامة وشعر أبي شراعة خاصة إذْ صرنا نرى ابتعاده عن التقاليد الفنية المعروفة فقد أتجه إلى موضوعات لا عهد للشعر التقليدي بها من قبل، هذا فضلاً على اتسام لغته بكثير من السهولة والبساطة في المفردات والتراكيب، ففي المديح مثلاً نجده يمدح بالأصل الفارسي بعد ما كان الشعراء في العصور السابقة لا يمدحون سوى الأصل العربي وهذا إنما يعود إلى الحالة السياسية التي

استحوذ فيها الأتراك على مقاليد الحكم في تلك الحقبة الأمر الذي أوجد تعاطفاً بين العرب والفرس ولعل ما يؤكد ذلك قول الشاعر:

لبني المدبر ارث مكرمة تفتر عنها العرب والعجم
قـــوم أنو شروان والدهم كســـرى وسابور لهم عم[٣١]

ويبدو لي فضلاً عما تقدم أن الشاعر في هذه الأبيات قد أثرت فيه صفة الكرم المتمثلة في شخصية الممدوح فراح يمدحه في قصيدة أخرى مفصحاً عن كرم ابن المدبر من جهة ومتألماً من عزله من الولاية من جهة أخرى إذْ قال:

يا إسحـــــاق ســـر في دعة وامضي مصحوباً فما منك خلف
ليت شعري أي أرض أجدبت فأغيـــث بك من جهد العجـف
نـــــزل الرحـــم من الله بهم وحرمنـــاك لذنـــــب قد ســلف
إنمـــا أنت ربـــيع باكـــــر حيثـــما صـــرفه الله انصـــرف[٣٢]

ومن هنا يمكن القول إن شعر أبي شراعة ذو أبعاد إنسانية عميقة تنتصر للخير في الوقت الذي تحارب فيه الشر بغض النظر عن نسبة هذا الشخص أو ذاك أو إلى أي الأقوام ينتمي ولعل قصيدته في هجاء أحمد بن أبي دواد العربي الأصل خير دليل على ما ذهبنا إليه إذْ يقول :

أفلت نجـــوم ســـعودك بن دواد وبدت نحوســك في جميع أياد
فرحت بمصـــرعك البرية كلـــها من كـــان منها موقناً بمعـــاد
لم يبق منك ســـوى خيال لامـــع فوق الفـــراش ممـهداً بوســـاد
وخبت لدى الخلفـــاء نار بعـد ما قد كنت تقـــدحـــها بكل زناد

أطـــغاك يا ابـــــن أبـي دواد ربنا فجريت في ميدان أخوة عـــاد
لم تخش من رب الســـماء عقوبة فســـننت كـــل ضلالة وفساد
كم من كريـــــمة معشـــر أرملتها ومحدث أوثقـــت بالأقيـــــاد
كم من مســاجد قد منعت قضاتها من أن يعـدل شـــــاهد برشاد
كم مـــن مصـــــابيح لها أطفـــأتها كيمـــا تزل عن الطريق الهاد
أن الأسارى في السـجون تفرجـوا لما أتتـــــك مواكـــــب العواد
وغدا لمصـرعك الطبيب فلم يجـد العلاج ما بك حيلة المرتـــــاد
لا زال فالجك الـــــذي بك دائمـــاً ومحقت قبل المـــوت بالأولاد
وأبا الولـــــيد رأيـــت في أكتافـــه ســـوط الخليفة من يدي جلاد
ورأيت رأسك في الجسور منوطـــاً فـــوق الرؤوس معلماً بســـواد(٣٣)

فالقصـيدة تمثـل صـرخة مدويـة بوجـه الظلـم الـذي كـان يمـارس مـن لـدن القاضـي أحمـد بـن أبـي دواد الـذي أخـذ الخلفـاء يعملـون بمشـورته منـذ عصـر المأمون حتى بداية عصر المتوكل، وذلك بمطاردة وتعذيب من لم يؤمن بقول المعتزلة في خلق القرآن.

وهكذا فأن الشاعر حينما وجد شخصاً يستحق المديح وجد آخر يستحق الهجاء، وكل ذلك يجري عنده بدافع الإحساس الحقيقي الذي دأب عليه بعض الشعراء من خلال تميزهم الخير من الشر ومن ثم وقوفهم مع الخير حتى بعد موت صاحبه. وذلك ما نراه بوضوح في رثاء أبي شراعة للجاحظ إذْ يقول :

في العلم للعلمـــاء أن يتفهـــــــموه مواعـــظ
وإذا نسيت وقد جمـــع ت علا عليك الحافـــظ

ولقد رأيت الظرف دهـ راء ماحـــواه اللافـــظ
حتـــى أقام طريقـــه عمرو بن بحر الجاحـظ
ثـــم انقضـــى أمد به وهـــو الرئيس الفائـــظ[٣٤]

إن الركة والبرودة في هذه الأبيات واضحة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الشاعر كان يعنى برصد حالات الخير والإشادة بها أكثر من أي شيء آخر لذا لم يتأثر بها تأثراً عميقاً كما هو الحال في الاتجاه السائد في شعر الرثاء إذْ يعمد الشاعر فيه إلى إظهار الحسرة والتوجع من خلال وصف الحادثة ومصداق ذلك تلك المفارقة الحاصلة بين رثاء أبي شراعة هذا وأشعاره في موضوعات أخرى .

- ٦ -

ان لغة الشعر في القرن الثالث الهجري شهدت تطوراً زيادة على ما شهدته في القرن الثاني الهجري من قبل وهذا يعود إلى حدوث تفاعل بين لغة الشعر وبين نفوس الشعراء الذين تطورت عقليتهم وثقافتهم وأسلوب حياتهم ، فقد كانت لغة الشعر صعبة الألفاظ وحشية غريبة لأن الحضارة لم تكن معروفة عند الشاعر القديم إلاّ أن التطور الحضاري الذي كان نتيجة لاختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى وتأثرهم بها أدى إلى ولادة لغة جديدة ، وهذه اللغة المولدة كانت اللغة العامة الأكثر شيوعاً[٣٥]

ومن هنا صرنا نجد ملاءمة بين لغة الشعر والحياة الجديدة حيث مضى الشعراء يلتمسون كثيراً من أوجه هذه الملاءمة فجاءوا بالألفاظ السهلة الرشيقة التي تبتعد عن ألفاظ البداوة والأعراب ، حتى في الأغراض التقليدية .

ولعل من بين هؤلاء الشعراء أبا شراعة ،الذي خرج على القواعد اللغوية في الاشتقاق والإتيان بالألفاظ الدخيلة، إذْ يستعمل الفعل(تفرج) فيقول:

إن الأسارى في السجون تفرجوا لمَا أتتـــــك مواكب العواد[٣٦]

والأصل فيه (فُرِجوا) أو (فرَجوا) .

وكذلك يستعمل أبو شراعة لفظة (مرةٍ) بدلاً من (امرأة) فيقول:

وأين رزقك إلاَ من يدي مـــرةٍ ما بت من مالها إلاَ على سرق[٣٧]

وكان بأمكانه أن يقول : (..... من يد امرأة ...)

وهذا الشعر وإن كان ضعيفاً من الناحية الفنية فيما نرى إلاّ أنه كان يعبر تعبيراً صادقاً عن مشكلات المجتمع، الأمر الذي جعله يفقد قوته جراء اقترابه من الحياة العامة ، ومع ذلك يعد هذا الأسلوب الشعبي تجديداً وتطويراً في مسيرة الشعر العربي .

ولم تقتصر هذه السهولة في شعر أبي شراعة على اتجاه الهجاء بل تجاوزت ذلك إلى اتجاه آخر وهو الرثاء الذي اقترب فيه الشاعر من الكلام الاعتيادي والنثرية المفرطة إذْ اتسمت بالليونة والأسفاف الشديدين، وذلك من مثل قوله السابق في رثاء الجاحظ .

على أن هذا لا يعدم من وجود ألفاظ بدوية اشتمل عليها شعر الشاع، إذْ لم يقتصر ورودها فيه على غرض دون آخر ، فجاءت حتى في أشعاره التي يعبر بها عن مسائل ذاتية خاصة به، ومن أمثلة ذلك ما قاله رداً على عتاب زوجته :

تلـــــوم ابنة البكري حين أؤويها هزيلاً وبعـــض الآيبين سمين
وقالت ألحاك الله تستحسن العرا عن الـــــدار إن النائبات فنون
وحـــــولك إخوان كرام لهم غنى فقلـــــت : لأخوان الكرام عيون
ذريني أمـــت قبل احتلال محلة لها في وجوه السائلين غضون
سأفدي بما لي ماء وجهي إنني بما فيه من ماء الحياء ضنين(٣٨)

فمن المعروف أن ألفاظ البداوة يكثر مجيئها في الأغراض التقليدية لدى أكثر الشعراء إلاّ أنها جاءت هنا في موضوع شخصي يرد فيه الشاعر على عتاب زوجته ولعل تذكره للشاعر الجاهلي حاتم الطائي وحواره مع زوجته التي كانت تلومه على الكرم سبب في توظيف هذه الألفاظ التي كان دافعها فيما أرى هو مجاراة الشعر القديم وتطويعه بما يتناسب وقضايا الشعر المختلفة، وفي هذا دليل واضح على أن الشعراء لم يكونوا منقطعين عن تراثهم الشعري، فقد ظل ذلك التراث زاداً فنياً خصباً يفيد الشعراء ثراءاً واسعاً في اللغة والأسلوب والبناء والمعاني .

الخاتمة :

إن عدم تركيز الدارسين على الشعراء المغمورين، لا يعني بحال من الأحوال قصور أولئك الشعراء وتدني مراتبهم، ذلك أن الحكم على الأمور يبقى ضعيفاً ما لم يخضع للاختبار والفحص الدقيقين ، فوصف شاعر مثل أبي شراعة القيسي بالمغمور يتفق من جانب ويفترق من جانب آخر فتفرق أشعاره في أثناء المظان والمصادر مع ضياع جزء آخـــــــر منها زيادة على انصراف

الدارسين القدماء والمحدثين وشغلهم بالبحث عن شعراء المراكز الرسمية، زد على ذلك اعتناء الباحثين بشعراء ارتبطت شهرتهم بالخليفة القريب منهم، حتى أصبحنا نعرف الشعراء عن طريق أسماء الخلفاء، كل هذا أدى إلى فقد المغمور من الشعراء مكانته وشهرته، أما في حال اهتمام الدارسين بشاعر مغمور فلا شك في أنه سيكشف القيمة الموضوعية والفنية لذلك الشاعر وسيكون تصنيفه في خانة المشهور أو المغمور تصنيفاً علمياً، لا سيما إذا كانت الدراسة مستقصية لكل ما يتعلق بالشاعر من قريب أو بعيد .

ولا ندعي في هذا البحث أننا وقفنا على هذه المتعلقات جملة وتفصيلاً، ومع ذلك وجدنا شيئاً نقوله عن أبي شراعة لما في شعره من ملامح تجديدية واضحة والذي حاولنا التدليل عليها من خلال بعض الاستشهادات الشعرية.

ولعل دراسة المغمورين من الشعراء تنبه على حقيقة مفادها أن كثيراً من هؤلاء قد ظلموا فلم يجدوا من يعتني بدراستهم والبحث في شعرهم ، ومنهم أبو شراعة القيسي شاعر بصري من شعراء الدولة العباسية عاش في حدود القرن الثالث الهجري ، وكان من أولئك الشعراء الذين حاولوا تجديد الشعر العربي بما جاء به من اتجاهات شعرية جديدة لا عهد للشعر العربي بها من قبل ، إلى جانب اتجاهات مجددة وهي أغراض شعرية كانت موجودة منذ عصر ما قبل الإسلام ، ولكن عصر الشاعر أضفى عليها حياة جديدة .

الهوامش:

١ – ينظر كتاب الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني المتوفي،(٣٥٦هـ– ٩٧٦ هـ) تحقيق الدكتور إحسان عباس، الدكتور إبراهيم السعافين، الأستاذ بكر عباس، دار صادر بيروت ١٤٢ هـ – ٢٠٠٨ م ج ٢٣ / ٣٣ .

٢ – نفسه ج ٢٣ / ٣٥ .

٣ – ينظر نفسه ج ٢٣٤ / ٣٦ .

٤ – ينظر نفسه ج ٢٣٤ / ٣٩ .

٥ – ينظر طبقات الشعراء المحدثين عبدا لله بن المعتز (٣٩٦ هـ) تحقيق عبدا لستار أحمد فراج ، القاهر ، دار المعارف ط ١ ، ١٩٥٦ م ، ٣٧٥ .

٦ – ينظر نفسه ٣٧٥ .

٧ – ينظر معجم الأدباء ، ياقوت بن عبد الله الحموي ، نشر د . أحمد فريد الرفاعي ، مطبوعات دار المأمون ، القاهرة ، ١٩٣٦ م ، ٦ / ٨٠ .

٨ – الأغاني ج ٢٣ / ٣٣ .

٩ – نفسه ج ٢٣ / ٣٣ .

١٠ – نفسه ج ٢٣ / ٣٤ .

١١ – الأغاني ج ٢٣ / ٣٨ . .

١٢ – نفسه ج ٢٣ / ٣٨ .

١٣ – نفسه ج ٢٣ / ٣٣ .

١٤ – ينظر نفسه ج ٢٣ / ٤٢ .

١٥ – نفسه ج ٢٣ / ٤٢ .

١٦ – ينظر طبقات الشعراء المحدثين ٤٥٧ .

١٧ – ينظر الفهرست ، ابن النديم أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت ٣٨٠ هـ) تحقيق ونشر د – شعبان خليفة ، ووليد محمد العوزة العربي للنشر والتوزيع،القاهرة ١٩٩١م،١٥١ .

١٨ – ينظر الأغاني ج ٢٣ / ٣٣ .

١٩ – ثقافة الناقد الأدبي ، د – محمد النويهي ، دار الفكر ، بيروت ١٩٦٩ م ، ٣٣٢ – ٣٣٣ .

٢٠ – الأغاني ج ٢٣ / ٤٠ – ٤١ ، الطفشيل نوع من المرق : التدبيل تكبير اللقمة أثناء الأكل .

٢١ – نفسه ج ٢٣ / ٣٨ ، دستيجة إناء من زجاج .

٢٢ – ينظر نفسه ج ٢٣ / ٤٠ .

٢٣ – ألوان الدكتور طه حسين ، القاهرة ، دار المعارف ط ٣ ، (د – ت) ٢٢٣ .

٢٤ – محاضرات الأدباء – الحسين بن محمد ، الراغب الأصفهاني ، ٥٠٢ هـ ، بيروت دار صادر ، مكتبة الحياة ١٩٦١ م ، ج ٣ / ٢٢٢ .

٢٥ – الأغاني ج ٢٣ / ٣٧ .

٢٦ – نفسه ج ٢٣ / ٣٧ – ٣٨ .

٢٧ – نفسه ج ٢٣ / ٤٤ – ٤٥ .

٢٨ – نثار الأزهار في الليل والنهار – محمد بن جلال الدين الملقب بأبن منظور (٧١١ هـ) القسطنطينية ، مط الجوائب (د– ت)ى ، ٤٥ .

٢٩ – قطب السرور في أوصاف الخمور – إبراهيم أبن إسحاق المعروف بالرقيق القيرواني ، (حوالي ٤١٧ هـ) تحقيق أحمد الجندي ، دمشق مطبوعات مجمع اللغة العربية ١٩٦٩ م ، ٥٥٢ .

٣٠ – الأغاني ج ٢٣ / ٣٨ – ٣٩ .

٣١ – سمط اللآلـيء أبـو عبيد البكري (٤٨٧ هـ) ، تحقيق عبدا لعزيز الويمني ، القاهرة مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ ، ١ / ١٣٤ .

٣٢ – ينظر الأغاني ج ٢٣ / ٣٥ .

٣٣ – تاريخ بغداد أبو بكر أحمد بن علي البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) مط السعادة مصر ١٩٣١ م ، ج ٤ / ١٥٥ ، وجاء الشطر الأول من البيت الأول في الكتاب كالآتي : (أفلت نجوم سعودك أبن أبي دواد) وكلمة أبي زائدة كما هو واضح .

٣٤– ينظر معجم الأدباء ج٦ /٨٠ ٠

٣٥– ينظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري الدكتور محمد مصطفى هداة ، دار المعارف ١٩٦٣ ، ٥٥١ ، العصر العباسي الاول الدكتور شوقي ضيف دار المعارف بمصر ط ٣ ، (د – ت) ١٤٦ – ١٤٧ ٠

٣٦– ينظر تاريخ بغداد ج ٤ / ١٥٥ ٠

٣٧– ينظر الأغاني ج ٢٣ / ٤٠ ٠

٣٨– ينظر نفسه ج ٢٣ / ٣٦ ٠

المصادر :

١ – اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، الدكتور محمد مصطفى هدارة، دار المعارف ١٩٦٣ م .

٢ – ألوان – الدكتور طه حسين ، القاهرة ، دار المعارف ط ٣ (د– ت) .

٣ – تاريخ الأدب العربي ، ٣ (العصر العباسي الأول) الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط ٣ (د – ت) .

٤ – تاريخ بغداد ، أبو بكر أحمد بن علي البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) مط السعادة مصر ١٩٣١ م .

٥ – ثقافة الناقد الأدبي ، محمد النويهي ، دار الفكر بيروت ١٩٦٩ م .
٦ – سمط اللآليء أبو عبيد البكري (٤٨٧ هـ) تحقيق عبد العزيز الويمني ، القاهرة مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ م .
٧ – طبقات الشعراء المحدثين عبدالله بن المعتز (٣٩٦ هـ) تحقيق عبدالستار أحمد فراج القاهرة ، دار المعارف ط ١ ١٩٥٦ م .
٨ – الفهرست ابن النديم أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت ٣٨٠ هـ) تحقيق رضا تجدد مطبعة د نشكاه ١٩٧١ ، تحقيق نشر د – شعبان خليفة ، ووليد محمد العوزة العربي للنشر والتوزيع القاهرة ، ١٩٩١ م .
٩ – قطب السرور في أوصاف الخمور – إبراهيم بن إسحاق المعروف بالرقيق القيرواني (حوالي ٤١٧ هـ) ، تحقيق أحمد الجندي ، دمشق مطبوعات مجمع اللغة العربية ١٩٦٩ م .
١٠ – كتاب الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني المتوفي (٣٥٦ هـ – ٩٧٦ م) تحقيق الدكتور أحسان عباس ، الدكتور إبراهيم السعافين ، الأستاذ بكر عباس ، دار صادر بيروت ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٨ م .
١١ – محاضرات الأدباء الحسين بن محمد ، الراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ) بيروت دار مكتبة الحياة ١٩٦١ م .
١٢ – معجم الأدباء ياقوت بن عبد الله الحموي ، نشر د – أحمد فريد الرفاعي ، مطبوعات دار المأمون ، القاهرة ١٩٣٦ م .
١٣ – نثار الأزهار في الليل والنهار – محمد بن جلال الدين الملقب بابن منظور (٧١١ هـ) ، القسطنطينية ، مط الجوائب (د – ت) .